وحدة المصير 1

لا يملك المرء ـ كما يقول الانجليز ـ الا ان يخلع قبعته و ينحنى اجلالا وتقديرا للقنوات الفضائية الجديدة التى ترفع شعار (الوحدة فى التنوع) رؤية و غاية فى رسالتها الاعلاميه وتبدع فى عرض لوحات فلكلورية تعدد فصول العام الاربعة و توحد اركان السودان الاربعه وفى هذه اللوحات التشكيلية الرائعه تؤمن على ضرورة الوعى بترسيخ مفهوم الوحدة فى كل المسارات بأى شكل وبأى مضمون و بأى ثمن كالخيار الوحيد والذى مهما كان غاليا فى لغة الحوار فلن يكون أغلى من حصاد القتال و ليس له بديل غير ضياع الوطن كله.

أقول هذا على الصعيد المحلى واتذكر فى مستهل الستينيات من القرن الماضى فى زما ن المد الثورى و زخم التحرر الوطنى الذى اجتاح العالم كالطوفا ن واهتزت معه أركان الامبراطورية الاستعماريه وهبت فيه رياح الحرية تقتلع غابات الظلام التى حجبت رؤية الشمس من سماء القارة السوداء فلونتها بسمرة الصحراء فانقسمت شمال و جنوب الصحراء ..وهذا أضعف الايمان

ولكننا فى ذلك الوقت اعتصمنا بحبل الله ووحدة المصير و ارتبطتنا بمشيمة الحنين الى ولادة الجنين الذى كان ينمو فى رحم القارة الام فى قلب المعركه.. و كان هذا قدرنا مترفعين عن صغائر النفس الامارة بالسوء مستمسكين فى غير تنظير بقوله تعالى(وفى انفسكم أفلا تبصرون) صدق الله العظيم ..وكنا مبصرين و مستبصرين بضرورة الوحدة من اجل التحرير من المحيط الى الخليج.

واذ نظرنا الى أنفسنا على المستوى الشخصى فاسرد حالتى كواحد من كل الزملاء فى تلك المرحلة فى شتى انحاء السودان..فقد ولدت فى مدينة (عطبره) و نشأت فى مدينة (شندى) ودرست فى (محطة هيا) فى شرق السودان و اكملت فى مدينة(سنجه) فى مديرية النيل الازرق ودخلت الثانوية فى حنتوب فى(مدنى الجزيرة) والتحقت بجامعة الخرطوم فى العاصمه وكاننى انتقل من غرفة الى اخرى داخل احد البيوتات فى الحوش الكبير.

وفى ذلك الوقت كان السودان مقسما الى ست مديريات قبل ان يصبح مئات الولايات اليوم و الحبل على الجرار..ودخل مرحلة الحكم الذاتى يحمل على اكتافه وزر

الانفصال بين الشمال و الجنوب ووصمة تاشيرة الدخول الى (المناطق المقفوله) ولم يكن هذا خيارا شماليا ولا اتفاقا جنوبيا بين اطراف متنازعه ولكنه تركه استعماريه مثقلة ما زال ينوء بها كاهل الجميع ..ولم افكر كثيرا فى فارق الجغرافيا بين اهلى المشتتين فى مدن السودا ن المختلفه فى شندى و الخرطوم و بور تسودان و الابيض ونيالا و جوبا والفاشر حتى كتابة هذه السطور.. أقارب من كل درجات صلة الرحم وكان يغنى لهم عمر الرباطابى فى (ربوع السودان) من (اذاعة امدرمان) الأم الحبلى باوجاع الجميع.

وطيلة المراحل الدراسية لم اكن اعرف قبائل زملائى من أين ينحدرون وحتى من كنا نطلق عليهم (ود أم جر) و(ود الهلالية) و(ود أبوفروع) كانوا يستنكفون هذه الجهويه ويعتزون بان لهم آباء و يشاركوننا حب الوطن وهم على مرمى حجر من العاصمه قبل ان نصل مرحلة المجاهرة بالمعصية فأنشأنا جمعيات وروابط باسماء القبائل و المدن و القرى وكأننا نؤصل لنزعة (تقسيم المقسم و تفتيت المفتت) وكان هذا فى نظرى منذ زمن بعيد بداية السقوط فى هاوية الضياع فى اشكال الهوية و شكل الانتماء.فاصبح الولاء للقبيله يفوق الولاء للمدينه المنوط بها توفير العيش و الولاء للمدينه يفوق الولاء للولايه المثقلة بهموم التنميه و الولاءللولايه يفوق الولاء للوطن المسحوق باوجاع الجميع وكان الله فى عون الوطن الذى اصبح كالقشة فى مهب الرياح تتقاذفه ايدى القوى الطامعه وتنهشه اظافر الذئاب الجائعة المغروزة فى جسد الضحية لتمزقه اربا اربا و العياذ بالله.

ودخلنا الجامعه و اجتمعنا السودان كله تحت قبة جامعة الخرطوم ..الشمال و الجنوب و الشرق و الغرب ولم يكن هنالك فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى فكان زميلى الدكتور على الحاج محمد فى كلية الطب بجامعة الخرطوم نتقاسم اجرة التاكسى لحضور اجتماعات المجلس الاربعينى لاتحاد الطلاب حتى تخرجنا فانتهى بى المطاف الى الاغتراب و انتهت به السياسة الى وزير الحكم الاتحادى وخطط لتوزيع الولايات بالسودان وحدثنى عن رغبته فى نقل العاصمة من الخرطوم و لم نختلف طوال حياتنا حتى بعد ما جاء فى زيارة شخصيه قبل بضع سنوات الى ابوظبى دعانى الى مادبة غداء فى بيت القنصل السودانى وحدثنى عن نذر الخلاف و قضايا الاختلاف فى الخرطوم.وكان زميلى أيضا بالكليه الدكتور الراحل جستن ياك اروب من الجنوب يعزنى و ينادينى (صديقنا الشاعر) وعند ما عدت من البعثة

الدراسية من لندن وجدته وزيرا للصحة للاقليم الجنوبى فى حكومة مايو وقد ساعدنى فى انشاء قسم الطب النفسى فى مستشفى كوستى من الميزانية المفتوحة للجنوب وكان زميلى ايضا الدكتور باسيفيكو لاقو فى كلية الطب وكان يسألنى ساخرا بعد عودتنا من كل مظاهره(متى تحرروا السودان حتى يتحرر الجنوب..؟) و عندما زارنى ضيفا فى منزلى فى (جوبا) و كنت اعمل فترة الشدة فى عام1968 قال لى (اذا ما حليتو مشكلة الجنوب على طريقتكم الان فسوف تحلوها على طريقتنا بعد خمسين سنه) فلنتامل ذلك التاريط و نحن نقترب من موعد الاستفتاء فى 1911م؟؟ وعدت من جوبا لاسافر الى البعثة فى لندن وذهب باسيفيكو الى المعارضة و عاد عضوا فى مجلس السيادة فى حكومة الانتفاضة1984..و ما زال فى الحركة الشعبية متعه الله بالصحة والعافية

وكان من زملاء الدراسة الدكتور (شلوم عبود) والذى لم اعرف هويته اليهوديه الا بعدما هاجرت الى الخليج وصرت اقرب من الصراع العربى الفلسطينى وعرفت ان كلمة (شلوم) بالعبرية تعنى (سلام) وقد كان سلاما معه حتى ترك السودان و حربا على اسرائيل حتى تترك فلسطين.

خلاصة القول اننا كنا نعيش حالة سلام مع النفس و الوطن من خلال قبولنا (الوحدة مع التنوع) والتعايش السلمى والبحث فيما يجمع و النأى عما يفرق وكان السودان افضل حالا فى فصول العام الاربعه و اوسع مجالا فى اركانه الاربعه رغم شح الامكانيات وقلة الثروات المتاحة آنذاك

فاذا اصبح السودان الآن سلة غذاء العالم.. وذوو القربى أولى بالمعروف..الا يكفى هذا مصدرا للطمأنينة من شرور قلب لا يخشع و عين لا تدمع و بطن لا تشبع...؟؟

هذا على الصعيد المحلى أما على الصعيد الاقليمى-العربى و الاسلامى- فللحديث بقية..